



على أكثر من وجه، يمكن قراءة التحرش الروسي بالجار التركي لسوريا. من بين هذه الأوجه ذاك الذي تريده موسكو إبرازه، وهو تمسكها التام بتعريفها سيادة النظام على الأراضي السورية كافة، لذا لم تكن مصادفة استهلال عمليات الطيران بقصف موقع للمعارضة لا تبعد أكثر من 500 متر من الحدود التركية. الرسالة الروسية واضحة، مفادها أن التدخل لا يهدف إلى بلورة «دولية علوية»، ولا إلى الدفاع عما تداوله بعض المحللين باسم «سوريا المفيدة» إيرانياً، وبالتالي تأكيد الحملة برمتها تتجاوز إقامة بقعة نفوذ روسية صغيرة على مياه المتوسط.

الاحتلال الروسي يأتي على الصد من فرضيات تقسيم البلد، أو انقسامه تلقائياً إلى مناطق سيطرة مستدامة، ومحاربة من دون أفق قريب لانتصار إحداها.

الأشهر القليلة التي وضعتها موسكو لحملتها، وبموجب القصف المكثف الذي استهلته، يفترض بهما إلحاق قدر من الدمار يجعل العيش في المناطق المستهدفة مستحيلاً، فضلاً عن إلحاق أذى غير قابل للتعويض في البنية العسكرية للفصائل المعاشرة.

هذا الطموح يتغذى من عدم وجود أدني مؤشر إلى استراتيجية غربية مضادة، ومن عجز القوى الإقليمية الداعمة للمعارضة عن فتح خطوط إمداد بلا تغطية أميركية، ويتنفس أيضاً من تقبل المجتمع الدولي أزمة اللاجئين كقضية إنسانية مجردة.

التصور الروسي/ الأسداني لسوريا المقبلة قد لا يبدو واقعياً أو قابلاً للتصديق، وهي ثغرة إضافية في فهم أولئك الذين ينتظرون الأيام المقبلة للحكم عليه، لكنه مهما بدا غير واقعي فلن يضيف جديداً، إذ لا أحد قبل أربع سنوات كان يملك شجاعة تخيل ما حدث خلالها في سوريا. موسكو والأسد يدركان عدم وجود أفق مستدام للدولة المزعومة، أو على الأقل لا تقتصر أطماعهما عليها، فسوريا «المفيدة» وفق ذلك الترسيم هي بالأحرى المفيدة إيرانياً، لا تلك التي تملك مقومات ذاتية للبقاء. لننسَ تلك المبالغات عن احتياطيات النفط والغاز في المتوسط، فلو كانت مغربية حقاً لسبقت إسرائيل الجميع وأصبحت دولة نفطية. سوريا ذات الثقل الراسخ المفید هي في الأصل خارج «دولية الساحل» المزعومة، المشكلة فيها أن غالبية سكانها لا يريدون بقاء النظام.

إذاً، موسكو لا تخفي تفضيلها بقاء الأسد بعد المرحلة الانتقالية، ولا تخفي نيتها مساعدته على استعادة الأراضي الخارجة عن سيطرته كافة تحت زعم شرعنته وإرهاص من يحاربه. وفق المعطيات الحالية، لا يُستبعد أن يحقق الروس انتصارات ميدانية مدعومين بقوات برية إيرانية وشيعية مع قوات النظام، وأن يبدأ مشروع قضم «المناطق المحررة» من دون تصدي دولي له.

المناطق المستهدفة ستكون كل تلك الخارجة عن السيطرة، باستثناء مناطق سيطرة الميليشيات الكردية، لأن للأخرية وظيفة تؤديها الآن كحاجز أمام قوات المعارضة، وليس أمام «داعش» فقط كما يُروج، وأيضاً كتهديد للجار التركي الذي لم يتخلّص من حساسيته إزاء الملف الكردي في الجوار. الوظيفة الأخيرة ستنقلب في ما بعد على الميليشيات نفسها، إذ توضع بين خيارين: التهديد التركي أو التسلیم التام للنظام.

نجاح المخطط الروسي/ الأسدی لا يتخيّل في المدى المنظور إعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل الثورة، فهذا هدف مستحيل أصلًا. علاوة على ذلك، لا النظام يريد ولا موسکو. سوريا التي يريدها الطرفان مبدئياً هي المبنية على الواقع التي فرضتها السنوات الأخيرة، مع الإقرار بفوز النظام وحلفائه بالمعركة، وتاليًا الإقرار بخسارة المعارضة وحلفائها. هي سوریتان، سوريا التي لم تتأذ بالحرب أو الانتقام، وسوریة «المعارضة» التي خسرت الحرب، وخرجت مدمرة تماماً، والتي ستلاحقها نسمة المنتصر.

للذكرى، عانت مدينة حلب من انتقام الأسد الأب ما يزيد عن عقد من الزمن نتيجة ما عُدّ تمرداً من جانبها ودعمًا للإخوان المسلمين، أما مدينة حماة فسبق بها النظام نموذج غروزني، وجهد بعد انتصاره لإعادة هندستها معماريًا وسكانيًا بما يضمن سيطرته.

سوریة «المزعجة» ستكون بعد أقل من السكان، لأن أزمة اللاجئين لن تجد طريقها إلى الحل سريعاً، وليس مستغرباً إطلاقاً التعامل معها كما تعاملت إسرائيل مع أزمة اللاجئين الفلسطينيين. مع التنويه بأن نجاح موسکو النظام سيفاقم أعداد النازحين، قد تُستخدم قضيّتهم لابتزاز دول الجوار سياسياً، أو حتى لابتزاز دعم دولي أو إقليمي تحت ستار إعادة الإعمار، لكن المافيا البوتينية أو الأسدية ليست من النوع الذي يتوازي عن السطو على الدعم والتنصل من الوعود.

باختصار، المستهدف هو ثروات سوريا «المزعجة» الطبيعية فحسب، مع أقل ما يمكن من السكان الذين هم أصلًا إما في موقع الموالاة أو الحياد. هذا وحده ما يكفل التناضل من التبعات الضخمة لإعادة الإعمار، وأيضاً يكفل الموارد لتسديد الديون الإيرانية والروسية.

بهذا المعنى، سيبني التدخل الروسي على مخطط التدمير والتغيير الديموغرافي الذي بدأ النظام وإيران، ولن تكون استعادة السيطرة إلا بمثابة احتلال شبه معلن، ووفق أسوأ مخيال عن قوى الاحتلال. ومهما قيل عن التزام موسکو بمعايير المؤسسات، إلا أن سلوك المافيا الحاكمة في داخل روسيا نفسها لا يشجع على حسن الظن، بل إن سلوكها في مناطق السيطرة والنفوذ بدءاً من الشيشان وصولاً إلى شرق أوكرانيا والقرم، يعزز فرضية تبنيها سياسة التدمير والتجهيز في سوريا أيضاً.

السيناريو السوري، إذا كتب له النجاح، سيمزج بين نهج أسوأ القوى الاستعمارية ومرحلة العبودية، إذ ستكون الفرصة سانحة ليعتقد النظام أنه تجاوز مرحلة «الأبد» إلى ما بعده.

التقسيم، إذا حصل وفق ما تريده موسکو، سيكون بين سوريا حاكمة واحتكارية للثروات، وإلى جوارها سكان يخضعون للسيطرة المطلقة تحت زعم مشاركتهم في السيرك الوطني الجديد.

قبل سنوات، قدمت هوليوود تصوراً مشابهاً، في سلسلة حظيت بالرواج تحت اسم The hunger games، حيث تدور القصة في بلد شهد ثورة فاشلة، وعوقبت المقاطعات الثائرة بانتقام وصل حد التجويع، بينما كان أبناءها يُساقون للفرجة عليهم في مواسم وطنية يتمتع بها سكان المقاطعات الحاكمة. بالطبع، تصعب مقارنة الحلول الهوليودية بفظاظة الجيش

الروسي، مثلاً يصعب الجزم بنجاح موسكو في ما تريد فرضه كوضع دائم، وإن كانت فرص نجاحه موقتاً غير معدومة.

الحياة اللندنية

المصادر: